

الاختلاف من داخل الوحدة: الفن الفلسطيني المعاصر

تال بن تسفي

عُقد بتاريخ 12 كانون الأول 2006 في متحف تل أبيب أمسية أُعلن فيها عن إقامة متحف الفنون في أم الفحم.¹ وجاء في كلمة مدير صالة العرض للفنون في أم الفحم، سعيد أبو شقرة، في دليل المعرض:

أدركنا أنه تقع على كاهلنا مسؤولية ضخمة وبعيدة المدى لإعادة بناء وتجميع وبحث وتخليد وعرض كل ما يتعلق بالثقافة العربية الفلسطينية التي تهشمت [...] ها هي صالة العرض في طريقها لتصبح أول متحف عربي للفن الحديث [...] هكذا ننشئ جيلاً مخلصاً لانتمائه وثقافته، جيل يمكنه تولي المسؤولية على حياته وعلى مستقبله (دليل متحف أم الفحم للفنون العصرية، 2006: 12-13).

ما هو فضاء عمل الحقل الفني الفلسطيني عموماً، وذاك الخاص بالأقلية الفلسطينية في إسرائيل تحديداً؟ من هي الجهات المؤسساتية والمواقف التي سيعمل ضمنها المتحف العتيق؟ ومن هو جيل الفنانين الشاب الذي سينشط فيه؟ هذه هي الأسئلة التي يتناولها هذا الاستعراض.

يُعرف المجتمع الفلسطيني هويته من عدة جماعات مختلفة بعيدة ومعزولة عن بعضها وتمتد على أربع مناطق جغرافية مختلفة: الضفة الغربية وقطاع غزة، دولة إسرائيل، الشتات الفلسطيني في العالم العربي، والشتات الفلسطيني في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. وكما هو حال المجتمع الفلسطيني، كذلك حقله الفني يمتد على هذه المراكز الأربعة.

تنشط أكبر مجموعة من الفنانين الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة. ويعرض هؤلاء الفنانون، بالأساس، في مؤسسات تدريس الفنون وفي صالات عرض مركزية في مناطق السلطة الوطنية الفلسطينية. كما يعرضون في معارض دولية وفي عدد قليل من المعارض داخل إسرائيل.

أما المجموعة الثانية حجماً فتشمل الفنانين الفلسطينيين الذين يعيشون في إسرائيل. ويتعاضم في السنوات الأخيرة حضور هذه المجموعة في حقل الفن الفلسطيني، ويضع نشاطهم هذا الحقل في مواجهة مع مكانة الفلسطينيين المواطنين في إسرائيل، في سياقاتها السياسية، الاجتماعية والثقافية. يعرض هؤلاء الفنانون في مراكز فنية في مناطق السلطة الفلسطينية وفي صالات داخل إسرائيل وفي معارض دولية.

المجموعة الثالثة حجماً هي الفنانون الفلسطينيون في العالم العربي. وينتمي الفنانون الناشطون في الشتات إلى مجموعة الفنانين الأكثر قديماً، كونها تعود إلى الثقافة التي تبلورت في مخيمات اللاجئين المركزة بالأساس في لبنان والأردن. وكلما ازدادت مركزية السلطة الوطنية الفلسطينية في القومية الفلسطينية، تضاعف عدد هؤلاء الفنانين في الحقل الثقافي الفلسطيني، وهكذا تضاعف تأثيرهم. وفي الوقت نفسه ازداد وزن فناني المجموعة الرابعة - مجموعة الفنانين الفلسطينيين المقيمين في دول الشتات في أوروبا والولايات المتحدة.

يعرض فنانون من المجموعات الأربع معاً في معارض متنوعة للفن الفلسطيني والتي تقام في مراكز ثقافية، متاحف وصالات عرض في العالم العربي، في أوروبا وفي الولايات المتحدة، وكذلك ضمن معارض دولية، كالمشاركة في معارض بيانياً (biennale - معارض دولية تُقام مرة كل سنتين) ومعارض دوكونتا (documenta - معرض فني دولي يُقام مرة كل خمس سنوات بألمانيا)، التي يعرضون فيها كمندوبيين فلسطينيين.

يقوم الحقل الفني الفلسطيني على ثلاث سمات مركزية: (أ) انعدام حدود قومية - يقيم الفنانون الفلسطينيون، كما أسلفنا، في أربع مناطق جغرافية منفصلة ويقومون حقلاً فنياً وطنياً واضحاً رغم الاختلاف الجغرافي؛ (ب)

• يستند هذا الاستعراض إلى مقالة: بن تسفي، تال، 2008. "الفن الفلسطيني المعاصر: الاختلاف من داخل الوحدة"، جماعة - مجلة متعددة المجالات لبحث الشرق الأوسط، جامعة بن غوريون، بئر السبع.

¹ تزامن الحدث مع المعرض الذي تضمن مخططاً معمارياً للمتحف، أعدّه المهندس المعماري سنان عبد القادر. للتوسع يُنظر إلى: متحف أم الفحم للفنون العصرية، 2006.

انعدام مؤسسات تعليمية وإرشادية "فلسطينية" للفن في العالم أجمع، بما فيه مناطق السلطة الفلسطينية؛ (ج) انعدام بنى تحتية تاريخية للمتاحف. ومن هنا يمكن القول إنه بخلاف الدول الوطنية السيادية، التي يقوم فيها الحقل الفني على وجود تلك العناصر، يقوم الحقل الفني الفلسطيني بالأساس على فنانين وفنانات يعملون في إطار الهوية الفلسطينية.

يتناول هذا الاستعراض من وجهة نظر واسعة الحقل الفني الفلسطيني كله، إلى وجهة نظر أضيق تتركز في عمل الفنانين الفلسطينيين في إسرائيل.

ينقسم الفنانون الفلسطينيون الناشطون في إسرائيل إلى جيلين: الأول، القدامى، يضم نحو عشرين فناناً فلسطينياً، رسّامون ونحاتون، باسروا نشاطهم في سنوات السبعينيات والثمانينيات، بعد إلغاء الحكم العسكري وفي أعقاب التوصل الجغرافي مع الجماهير الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة بعد حرب العام 1967؛ الجيل الثاني، الأصغر سناً، بدأ ينشط في أواسط التسعينيات بعد اتفاقيات أوسلو، ويضم اليوم أكثر من 200 خريج من معاهد فنية في إسرائيل. ويُنتج هؤلاء الفنانون في مختلف مجالات الفنون، وبالأساس في النحت العصري (Installation) - نصب مجسمات ثنائية وثلاثية الأبعاد في مكان رحب، مغلق أو مفتوح، يُمكن للمشاهد التجوال بداخله)، التصوير، فن الفيديو والعرض، إلى جانب الرسم والنحت.

أدت النكبة الفلسطينية ونتائجها إلى أن يبدأ الفنانون الفلسطينيون داخل إسرائيل في العمل في مرحلة متأخرة نسبياً، بعد قرابة 25 عاماً على وقوعها. لقد بتت حرب 1948 نشاط العديد من الفنانين الفلسطينيين الذين أنتجوا في فلسطين التاريخية منذ مطلع العشرينيات. كانت فترة الحكم العسكري فترة عزلة قاسية على الفنانين الذي بقوا في نطاق دولة إسرائيل. بالمقابل، كان وضع اللاجئين الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة وكذلك في مخيمات اللاجئين في العالم العربي مختلفاً، وخرج العديد منهم لدراسة الفن في أكاديميات الفنون في العالم العربي.

بدأ الشباب الفلسطينيون بالخروج من إسرائيل لدراسة الفن في البلاد والخارج في أواخر الستينيات فقط. كان أولهم عبد عابدي من حيفا، الذي سافر لدراسة الفن في درزدن بألمانيا ضمن منحة دراسية من الحزب الشيوعي الإسرائيلي. وعاد عابدي إلى البلاد عام 1972 وعُيّن مصمّم جرافي لصحيفة "الاتحاد" (تصدر في حيفا منذ العام 1944). وخرج بعده كلٌّ من أسامة سعيد، خليل ريان، داود الحايك، حسن خاطر، وليد قشاش وكميل ضو. وفي الثمانينيات أنهى دراسته كلٌّ من: إبراهيم نبواني، أسد عزي، عاصم أبو شقرة، أحمد كنعان، إبراهيم حجازي، فريد أبو شقرة، جاسر أبو ربيعة، إبراهيم أبو جريبع، بشير أبو ربيعة وغيرهم. عرض هؤلاء الفنانون أعمالهم في الثمانينيات ضمن معارض في الضفة الغربية وغزة أيضاً.

تُمثّل هذه المجموعة، والتي باشرت عملها منذ السبعينيات، نموذجاً لنشاط الفنانين الفلسطينيين الذين ينشطون في الحقل الثقافي الإسرائيلي والحقل الثقافي الفلسطيني في آن واحد. يُعتبر الفنانون في الحقل الأول فنانين عرباً إسرائيليين، ويُدعون لعرض أعمالهم في معارض جماعية للفن الإسرائيلي في البلاد والعالم. وكانت البيانياً السادسة في فينيتسيا عام 1986 أول حدث كبير عرّض فيه فنانون عرب من إسرائيل (إبراهيم نبواني وأسد عزي) ضمن الجناح الإسرائيلي.

ويبرز في هذا السياق الفنان عاصم أبو شقرة. حيث يعكس النقاش حول أعماله التغيير الذي حصل في حقل الفن الإسرائيلي تجاه أعمال الفنانين العرب الفلسطينيين خريجي معاهد الفنون في إسرائيل. في مقال عن أعمال أبي شقرة عام 1990، عرّفته ساريت شاييرا كـ "فنان عربي إسرائيلي"، بينما في دليل نشره متحف تل أبيب عام 1994 على شرف معرض منفرد لأبي شقرة بعد رحيله المبكر، ظهر جنباً إلى جنب التعريفان "عربي- إسرائيلي مسلم" و"عربي- فلسطيني- إسرائيلي". إنّ هذا التغيير، الذي بدأ في وعي الفنانين العرب الفلسطينيين خريجي معاهد الفنون في إسرائيل لمركبات هويتهم، هو تغيير تدريجي بلغ ذروته بعد اتفاقيات أوسلو وبعد العام 1998، عام النكبة الخمسين، خصوصاً فيما يتعلق بأعمال مجموعة الفنانين الشباب الذين وُلدوا بعد عام 1967.

وُلد هذا الجيل إلى واقع الاحتلال الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية، ويرتبط عالمه السياسي بالتناقض الذي أنتجته حرب العام 1967: حسم عسكري واضح، من جهة، أقتع الجماهير الفلسطينية بأنّ إسرائيل حقيقة واقعة وبأنّهم، كمواطنين فيها، مرتبطون بها وبمصيرها؛ واستئناف التواصل، من جهة ثانية، مع أبناء شعبهم في الضفة الغربية وقطاع غزة، ومن خلال هؤلاء مع أبناء شعبهم في الشتات الفلسطيني في مختلف أنحاء المنطقة (رابينوفيتش وأبو بكر، 2002: 20). مجموعة الشباب هذه، والتي نشأت على خلفية هذا التناقض، بدأت بتعلّم الفن فعلاً بعد اتفاقيات أوسلو فقط.

في التسعينيات طرأ ارتفاع ملحوظ على عدد الطلاب العرب في أكاديميات الفنون والجامعات وكليات الفنون في إسرائيل. ويُنتج هذا الحضور المثابر تمثيلاً متراكماً للفنانين الفلسطينيين في كلا الحقلين الفنيين – الإسرائيلي والفلسطيني.

وبين هذا وذاك، بين الحقل الثقافي الفلسطيني والحقل الثقافي الإسرائيلي، يتبلور منذ التسعينيات حقل ثقافي مخصوص يمكن تعريفه بأنه "الحقل الفني للأقلية الفلسطينية في إسرائيل". وتشكّل هذه السيرورة جزءاً من الثقافة الوطنية للأقلية الفلسطينية داخل حدود دولة إسرائيل، كما تنعكس في الأدب والشعر الذين ظهروا في الستينيات والسبعينيات، وفي المسرح والسينما الفلسطينيين الذين تطوّروا في الثمانينيات والتسعينيات.

ينشط اليوم أكثر من 200 فنان فلسطيني من خريجي المعاهد الفنية خارج البلاد وفي إسرائيل، بشكل أساسي. وتتم دراسة الفنون في كلّ من أكاديمية بتسالنيل للفنون في القدس، مدرسة الفنون في كلية بيت بيرل، جامعة تل أبيب، معهد آفني، مدرسة كليشر للفنون في تل أبيب، جامعة حيفا، كلية فيتسو-كندا في حيفا، كلية أورانيم، كلية الجليل الغربي، كلية مناشيه وكلية كيب في بئر السبع.

في العام 1994 تأسست في قرية جولس في الجليل جمعية الفنانين العرب "إبداع" لتشجيع الفن في الوسط العربي، وفي العام 2007 أقيمت صالة عرض للجمعية في قرية كفر ياسيف (الكانزون: إبراهيم حجازي وسلام منير ذياب). وبادر فنانون فلسطينيون إلى إقامة فضاءات أخرى للعرض في القرى والمدن العربية والمدن المختلطة في إسرائيل، نستعرض أهمها فيما يلي:

- ثمة نشاط هام في "بيت الكرمة" في حيفا، بفضل عمل الكانزة حانا كويلر. باشرت كويلر عام 1996 نشاطها الفني المنظم حين بادرت إلى عدّة مشاريع سنوية، منها معرض "أسبوع الثقافة العربية" ومعرض "عيد الأعياد" ومعرض النحت في الهواء الطلق في وادي النسناس.
- في العام 1996 أقيمت "صالة العرض للفنون أم الفحم" ضمن نشاط جمعية "الصبار" وبإدارة سعيد أبو شقرة. وتشمل نشاطات صالة العرض معارض جماعية ومنفردة لفنانات وفنانين فلسطينيين، إصدار المطبوعات بالعربية والعبرية، نشاطات تربوية وورشات فنية، إقامة أرشيف صور لوادي عارة، تجميع أعمال فنية فلسطينية وتنظيم دورة لكنز المعارض للفنانين الشباب. بالإضافة إلى ذلك، بادرت الصالة إلى مشروع "تصميم البيئة" الذي طوّر خلاله مسار "خمسة" – مجتمع، ثقافة، تربية، بيئة واقتصاد. يقود المشروع عامي شتاينيتس وسعيد أبو شقرة. يرى شتاينيتس، وهو ناشط قديم في دعم الأفكار الاجتماعية بواسطة الفن، في مشروع "تصميم البيئة" بمثابة "كنز دون جدران"، لا يرمي إلى إنتاج "حدث" فني أو نحتي واحد، وإنما إلى عمل أكثر عمقاً وتفاعلاً وتجذراً مع المكان والمجتمع.
- في العام 2000 أقيمت صالة "هاجر" للفن العصري في حي عجمي في يافا (الكانزة: تال بن تسفي) بهدف إتاحة إمكانية اللقاء والحوار مع الفنانين باللغة العربية.²
- في العام 2005 أقيمت صالة للفنون في مدينة طمرة (الكانز: أحمد كنعان) وفي العام 2006 أقيمت صالة بلدية في مدينة الرملة (الكانز: عامر درباس)، كلتاهما ضمن سلسلة من الصالات في مناطق الضواحي، أنشئت بدعم من "أومنوت لعام". كما تشهد المراكز الثقافية في القرى والمدن العربية نشاطات فنية فلسطينية واسعة، منها: صالة العرض في مدينة رهط (الكانز: خضر وشاح)، صالة البلدية في الناصرة وصالة المركز الثقافي الفرنسي في الناصرة، صالة معلوت ترشيحا، وصلات المراكز الجماهيرية و"إشكول بايس" في يركا والبيقعة والمغار، والمركز الثقافي في كفر قرع، ومعهد الفنون في عرعر، والمركز الثقافي في كفر ياسيف ومهرجانات النحت السنوية التي تقام فيه.

² أقيمت في صالة هاجر للفن معارض منفردة للفنانين: حنانة إميل عبود، رائدة أدون، سامي بخاري، أحلام شبلي، فاتن نسطاس متواسي، شريف واكد، أشرف فواخري، أنيسة أشقر وأحلام جمعة. يُنظر إلى موقع الصالة: www.hagar-gallery.com، وأيضاً إلى المطبوعات التي حرّرتها تال بن تسفي وأصدرتها جمعية هاجر عام 2006: هاجر – فن فلسطيني معاصر؛ سير ذاتية، ستة معارض منفردة في صالة هاجر للفن.

وفضلاً عن هذا، يعرض فنانون فلسطينيون من خريجي المعاهد الفنية في إسرائيل في متاحف وصلات عرض في مركز البلاد وفي الضواحي. فقد أقيمت عروض منفردة لعدد من الفنانين في متاحف مختلفة، فعرض في متحف تل أبيب: عاصم أبو شقرة، إبراهيم نبواني وأحلام شبلي؛ وفي متحف إسرائيل: رائدة أدون، حنا فرح، رائدة سعادة وشريف واكد؛ وفي متحف رمات جان: أسد عزي وأحمد كنعان؛ وفي متحف هرتسليا: بشير مخول، جمانة إميل عبود، أحلام شبلي وشريف واكد؛ وفي متحف ناحوم جوطمان: ضرار بكري ورامي سعدي؛ وفي دار الفنون في عين حرود: فريد أبو شقرة، أحلام شبلي ونوال جبر؛ وفي متحف حيفا للفنون: منال محاميد، أنيسة أشقر، أشرف فواخري وحنا فرح؛ وفي متحف بيتح تكفا: فريد أبو شقرة ومنار زعبي؛ وفي متحف يغنثال ألون: عبد عابدي، مرفت عيسى، سلام منير ذياب، حسن خاطر، جمال حسن، رانية عقل، سلمان ملا، نوال نفاع وغيرهم؛ وفي العام 2009 أقيم في متحف هرتسليا للفنون معرض جماعي واسع النطاق للفن الفلسطيني وُسم بـ "رجال في الشمس" (الكانزان: حنا فرح وتال بن تسفي).

يحظى الفن الفلسطيني المعاصر، في العقد الأخير، باهتمام غير مسبوق في الحقل الفني العالمي، هذا إلى جانب تبلور الحقل الفني الفلسطيني بكل أجزائه – في مناطق السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، داخل دولة إسرائيل وفي الشتات الفلسطيني. يعمل الفنانون الشباب في الحقل الفني الفلسطيني في منظومة متعددة الثقافات تشمل أقليات ومواطنين يعيشون تحت الاحتلال ولاجئين ومغتربين ومهاجرين – وجميعهم يرتبطون بالهوية الفلسطينية بشكل مركب ومتعدد الأوجه.

صحيح أنّ متحف أم الفحم العتيق سيقوم داخل دولة إسرائيل، إلا أنّ جمهوره الفعلي والمتخيل يتجاوز الحدود الجغرافية، التاريخية والسياسية. وعلى غرار المؤسسات الفنية الأخرى لدى الأقلية الفلسطينية في إسرائيل، وصالة العرض للفنون في أم الفحم، سيتوجّه المتحف العتيق إلى كلا الحقلين الفنيين الإسرائيلي والفلسطيني، وإلى جماهير الهدف والجهات المؤسساتية فيهما، من كانزين ونقاد فنيين وجامعين و متاحف وصلات عرض ومعاهد للفنون.

ولتلخيص هذا الاستعراض يمكن القول إنه بالإمكان تعريف هذا النشاط الفني باصطلاح "الاختلاف من داخل الوحدة"، الذي ابتكره باروخ كيمرلينج ويوثيل شمونيل مجدال في تعريفهما للهوية الفلسطينية بعد العام 1948. فحسب ادعائهما فإنّ "الاختلاف" ينعكس في تقسيم المجتمعات الفلسطينية إلى مجتمعات فرعية، ليس من الناحية الجيوسياسية فحسب، بل من حيث تاريخ كل مجتمع ومصيره أيضاً. أما "وحدة" هذا المجتمع المُقسّم فتنعكس في تعريف الهوية الفلسطينية وتأكيد الانتماء إلى فلسطين ما قبل العام 1948 (كيمرلينج ومجدال، 1999: 261).

يتوجّه هذا النشاط الفني للأقلية الفلسطينية في إسرائيل إلى مواطني الدولة عموماً وإلى كل مريدي الفن في العالم أجمع، وإلى الفلسطينيين في "الداخل" وإلى الفلسطينيين في مناطق السلطة الوطنية الفلسطينية وفي الشتات الفلسطيني. وقد أنتج هذا النشاط على مدار الأعوام الستين بعد 1948 فناً بصرياً خصوصياً يقف في الفسحة الواقعة بين حقول قومية محدّدة.

ثبت المراجع:

- أبو شقرة، سعيد، 2005. *حزوز البرتقالة: من مجموعة ايفيت ومازن قبلي للفن الفلسطيني*، صالة العرض للفنون أم الفحم. (عربي-عبري)
- بُلّاطة، كمال، 2000. *استحضار المكان: دراسة في الفن التشكيلي الفلسطيني المعاصر*، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. (عربي)
- بُلّاطة، كمال، 2000. "الفن"، ضمن: فيليب مّار (تحرير)، *موسوعة الفلسطينيين*، نيويورك: فاكتس أون فايل. (انجليزي)
- بُلّاطة، كمال، 2001. "العالم، الذات والجسد: نساء رائدات في الفن الفلسطيني"، ضمن: تال بن تسفي وياعيل ليرر (محرّرات)، *صورة ذاتية – الفن النسائي الفلسطيني*، تل أبيب: أندلس، 9-48. (عربي)

- بن تسفي، تال، 2004. بين القومية والنوع الاجتماعي - تمثيل جسد المرأة في الفن النسائي الفلسطيني، رسالة لنيل شهادة الماجستير، تل أبيب: جامعة تل أبيب. (عبري)
- بن تسفي، تال، 2006. هاجر - فن فلسطيني معاصر، يافا: جمعية هاجر. (عبري)
- جينبر، يوفال، 1990. "تقييدات على الفن الفلسطيني في المناطق" (تقرير بتسليم)، ستوديو 11:17. (عبري)
- دليل متحف أم الفحم للفن المعاصر، 2006. أم الفحم: صالة العرض للفنون أم الفحم. (عربي-عبري)
- رابينوفيتش، داني وأبو بكر، خولة، 2002. جيل منتصب القامة، القدس: كيتز. (عبري)
- شرفول، تينا، 2001. "تخيّل فلسطين كأموطن"، داخل: تال بن تسفي وياعيل ليرر (محرّرات)، صورة ذاتية - الفن النسائي الفلسطيني، تل أبيب: أندلس، 49-66. (عبري)
- كيمرلينج، باروخ ومجدال، يوثيل شموييل، 1999. الفلسطينيون - صيرورة شعب، القدس: كيتز، 261. (عبري)

* رئيسة مدرسة الفنون، كلية "سمينار هكيبوسيم"

ترجمه عن العبرية: رجا زعائرة